محاضرة:
عمود الشعر

مقدمـــــــة:

يرجع لفظ العمود وما اشتق منه في استعمالنا إلى مجموعة من المعاني، فالعمود يشير إلى القضيب الحديدي أو الخشبي صلابة وارتكازا. ومن مشتقات العمود، العمدة، أي سيد القوم عند القدامى. وجاء لفظ العمدة عند ابن رشيق، بمعنى الاتكاء والمرجعية، كما يحيل لفظ (العمدة) كذلك على (العميد)، كقولنا عميد الأدب العربي، وعميد المسرح، وعميد السياسة... إذ تتوفر في أحد العمداء شروط العمادة، وقد لا توفر، كما دلت كلمة (عمد) في بعض الألقاب على الاتكاء والسند، كقولهم عماد الدين، والمعتمد، والمعتمد بالله[1].

وقد دلّت لفظة عمود على قوام الشيء، كما دلت عند المعاصرين على الشعر التقليدي والقديم، فاقترنت عندهم بالوراثة، والتقليد، والتراث... فحملت صفات المعيارية والنموذجية والثبات، لذلك حصر بعض النقاد دلالة (العمود) في الجانب العروضي، ولذلك جاءت تسمية الشعر العمودي كمقابل للشعر الحر.

فعمود الشعر إذن دل على الطريقة والمذهب أو المسلك الذي سار عليه الأوائل في فهمهم للعملية الشعرية خلافا للشعر المحدث أو الشعر الحر أو شعر التفعيلة، وجملة القول أن عمود الشعر «يشير في استعماله عند القدامى إلى مقومات الشعر حسب فهم معين»[2].

وقد أكد الآمدي (ت 370 هـ) على أن عمود الشعر هو النهج المعروف والسنن المألوف، فهو يمثل مذهب الأوائل في الشعر وطريقتهم المعهودة، ولذلك صرح في مؤلفه (الموازنة) «وحصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة، مع ما نجده كثيرا

---

[1]-توفيق الزيدي، عمود الشعر، في قراءة السنة الشعرية عند العرب، ط 1، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993، ص: 13.
[2]-المرجع نفسه، ص: 17.

في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة، وانفرد بحسن العبارة، وحلاوة الألفاظ، وصحة المعاني، حتى وقع الإجماع على استحسان شعره واستجادته»[3].

ومن أبرز الذين تناولوا قضية عمود الشعر نجد القاضي الجرجاني(ت 322 هـ) الذي تمثل آراء الآمدي بحذق وذكاء، فتصور أن الصنعة البديعية هي الحد الفارق بين عمود الشعر وما هو خارج عنه. يقول القاضي الجرجاني: «وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبدّه فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته، ولم تكن العرب تعبأ بالتجنيس والمطابقة إذا حصل لها عمود الشعر»[4].

أما أبو علي المرزوقي (ت 421 هـ) فقد ألّف كتابا عنونه بـ (شرح ديوان الحماسة)، حاول فيه تأصيل نظرية عمود الشعر على أساس تمجيد القديم والتنكر لكل توليد وابتكار، فزعم من هذا الصنيع أنه يروم «تمييز تليد الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه... وليعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع»[5].

عناصر عمود الشعر:

وضع أبو علي المرزوقي سبعة أبواب تشكل عناصر عمود الشعر، ولكل باب منها معيار:

- معيار المعنى (شرف المعنى وصحته): أن يعرض على العقل الصحيح، والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه القبول والاصطفاء، مستأنسا بقرائنه، خرج وافيا، وإلاّ انتقص بمقدار شوبه ووحشته. وأن تتحقق الفائدة حين يمتلك الشاعرة القدرة على إيصال المعاني المقصودة على

---

[3]-الآمدي، الموازنة، ص: 20.

[4]-القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 33، 34.

[5]-أبو علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تح أحمد أمين وعبد السلام هارون، ج 4، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951، ص: 8، 9.

أذهان السامع، ويجعلهم يفهمونه ويحسون به. كما يشترط في المعاني صحتها والصحة تتحق في مطابقتها لحقيقة ما يتحدث عنه الشاعر

- عيار اللفظ (جزالة اللفظ واستقامته): الطبع والرواية والاستعمال، فما سلم من التهجين، فهو المختار المستقيم، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينا. وجزالة اللفظ تظهر في قوته ومتانته، وأما الاستقامة فهي اتفاق الألفاظ مع أصول اللغة وقواعدها المتعارف عليها.

- عيار الإصابة في الوصف: الذكاء وحسن التمييز. بمعنى ظان يصيب الشاعر في وصفه إذا وصف، وأن يقع على الشيء الذي يتحدث عنه وقوعا يحيط به ويلم بمعالمه إلماما سليما صحيحا.

- عيار المقاربة في التشبيه: الفطنة وحسن التقدير، ليبين وجه الشبه بلا كلفة، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به، أو ملكها له، وقد قيل: أقسام الشعر ثلاثة: مثل سائر، وتشبيه نادر، واستعارة قريبة. فالعرب تستحسن التشبيه القريب مثلما يستقبحون التشبيه الغامض البعيد

- عيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن، والطبع واللسان، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده، ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصوله، بل استمر فيه واستسهله بلا ملل ولا كلل، فذاك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة تسالما لأجزائه وتقاربا.

- عيار الاستعارة (مناسبة المستعار منه للمستعار له): الذهن والفطنة، وملاك الأمر، تقريب التشبيه في الأصل، حتى يتناسب المشبه مع المشبه به، ثم يكتفي فيه بالاسم المستعار، لأنه المنقول عما كان له الوضع إلى المستعار به.

عيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية: ويكتسب هذا العيار منطول الدربة، ودوام المدارسة، والممارسة وقد جعل الأخص للأخص، والأحسن للأحسن، فهو البريء من العيب.

فهذه الخصال هي أساس عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها، وبنى شعره عليها، فهو عندهم المفلق المعظم، والمحسن المتقدم.

يلاحظ الدارس أن أقوال النقاد في عمود الشعر، وإن لم تظهر مجموعة إلا عند قليل منهم، كانت شاملة لأغلب وجوه القصيدة من معنى ولفظ وصورة وبناء ووزن، وهو ما حدا بالباحث محي الدين صبحي إلى جمعها في العناصر الآتية:

العناصر التكوينية: المعنى واللفظ.

العناصر الجمالية: الوصف والتشبيه.

العناصر الإنتاجية: غزارة البديهة والفرادة[6].

أما الناقد إحسان عباس، فهو لا يتوانى في جعل آراء المرزوقي خلاصة لما ساد من الآراء النقدية في القرن الرابع على نحو لم يسبق إليه ولا يتجاوزه أحد، بل إن مقدمة المرزوقي «تعدّ أنموذجا جيدا في البناء الجديد على أسس قديمة»[7].

فالمتمعن في مدونة الشعراء المحدثين يلاحظ بأن الشعراء لم يلتزموا بكل العناصر التي أشار إليها الآمدي والقاضي الجرجاني وأبو علي المرزوقي، فجعل الشعراء المحدثين من البديع مقياسا للتفاضل بينهم، فراحوا يسرفون فيه إلى حد التكلف على نحو ما فعل أبو تمام الذي أفرط في البديع، فخرج عن عمود الشعر، لأنه «شديد التكلف صاحب صنعة، وشعره لا يشبه شعر الأوائل، ولا أجد من أقرنه به»[8].

نقد نظرية عمود الشعر:

يرى الباحث جودة فخر الدين في مؤلفه (شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري) بأن نظرية عمود الشعر نفي للتفرد وإلغاء للشاعر، وتمجيد للمذهب،

---

[6]-محي الدين صبحي، دراسات كلاسيكية في الأدب العربي، ط 1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1980، ص: 106.

[7]-إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط 4، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، ص: 399.

[8]-الآمدي، الموازنة، ص: 6.

ورفض لكل فتح جديد، وهذا واضح في عيارات المرزوقي[9]، في حين يرى الباحث التونسي توفيق الزيدي بأن النقاد القدامى في دفاعهم عن عناصر عمود الشعر استقرأوا المدونة الشعرية في العصور الأولى دون غيرها، مما جعل عياراتهم تصلح للكلام البليغ عامة منظوما ومنثورا، ولذلك غيبوا عناصر التحول التي طرأت على المجتمع العربي خاصة بعد انحسار ثقافة البادية وبروز ثقافة المدينة، فلم يعد الشاعر لسان القبيلة المدافع عنها بقدر ما تعددت وظائفه من شاهد على العصر إلى« "بائع كلام" مدحا ورثاء، إلى نديم وجليس»[10].

وهكذا تعددت مظاهر الخروج عن أسس عمود الشعر خاصة عند الشعراء الهامشيين المارقين على سنن الشعر القديم، ومع تقدم الزمن راح المحدثون يسرفون في الخروج عن هذا العمود حتى صارت المعاني تخضع للألفاظ، فأضحت المحسنات البديعية هي السوق التي تنفذ فيه بضاعة الشعراء، كما كان لأبي نواس الدور الفعال في تغيير معمارية القصيدة من خلال الدعوة إلى نبذ المقدمة الطللية، واستبدالها بالمقدمة الخمرية، فقال:

صفة الطلول بلاغـــــــــة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكـــــــــرم

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقال عن الرحلة:

وخل المراكب الوجنـــــاء أرضا تخب بـــــــــها النجيبة والنجيب

كما شهد الشعر المحدث بعض محاولات التجديد في الشكل الموسيقي، فتخللته بعض محاولات التغيير التي تناسب روح العصر، فراح الشعراء يؤثرون البحور القصيرة المناسبة لحركية الحياة، فلم تكن محاولاتهم ثورة على الوزن وإنما «قهرتهم عليها دواعي اللهو والملاءمة بين الفكرة القصيرة النفس وبين البحر القصير»[11].

---

[9]-جودة فخر الدين، شكل القصيدة العربية حتى القرن الثامن الهجري، ط 1، دار الآداب، بيروت، لبنان، 1984، ص: 60.

[10]-توفيق الزيدي، عمود الشعر، قراءة في السنة الشعرية عند العرب، ص: 72.

[11]-طه مصطفى أبو كرشة، النقد العربي التطبيقي بين القديم والحديث، ط 1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1971، ص: 142.